

التحرير والتنوير

فإما على جعل النبأ بمعنى نبأ خلق آدم فإن جملة (إذ قال ربك) بدل من (إذ يختصمون) بدل بعض من كل لأن مجادلة الملاً الأعلى على كلا التفسيرين المتقدمين غير مقتصرة على قضية قصة إبليس فقد روى الترمذي بسنده عن مالك ابن يخامر عن النبي A حديثاً طويلاً في رؤيا النبي A (أنه رأى ربه تعالى فقال له : يا محمد فيم يختصم الملاً الأعلى ؟ قلت : لا أدري . قالها ثلاثاً . ثم قال بعد الثالثة بعد أن فتح ا□ عليه قلت : في الكفارات . قال : ما هن ؟ قلت مشي الأقدام إلى الحسنات والجلوس في المسجد) . وذكر أشياء من الأعمال الصالحة (ولم يذكر اختصاصهم في قضية خلق آدم) . وقال الترمذي هو حديث حسن صحيح وقال عن البخاري : إنه أصح من غيره مما في معناه ولم يخرج البخاري في صحيحه وليس في الحديث أنه تفسير لهذه الآية وإنما جعله الترمذي في كتاب التفسير لأن ما ذكر فيه بعض مما يختصم في أهل الملاً الأعلى مراد به اختصاص خاص هو ما جرى بينهم في قصتهم خلق آدم والمقاولة بين ا□ وبين الملائكة لأن قوله (فسجد الملائكة) يقتضي أنهم قالوا كلاماً دل على أنهم أطاعوا ا□ فيما أمرهم به بل ورد في سورة البقرة تفصيل ما جرى من قول الملائكة فهو يبين ما أجمل هنا وإن كان متأخراً إذ المقصود من سوق القصة هنا الاتعاط بكبر إبليس دون ما نشأ عن ذلك .

ويجوز أن يكون (إذ قال ربك) منصوباً بفعل مقدر أي اذكر إذ قال ربك للملائكة وهو بناء على أن ضمير (هو نبأ عظيم) ليس ضمير شأن بل هو عائد إلى ما قبله وان (إذ يختصمون) مراد به خصومة أهل النار .

وقصة خلق آدم تقدم ذكرها في سور كثيرة أشبهها بما هنا ما في سورة الحجر وأبينها ما في سورة البقرة .

ووقع في سورة الحجر (إلا إبليس أبي) وفي هذه السورة (إلا إبليس استكبر) فيكون ما في هذه الآية يبين الباعث على الإبابة .

ووقعت هنا زيادة (وكان من الكافرين) وهو بيان لكون المراد في سورة الحجر من قوله (أن يكون مع الساجدين) الإبابة من الكون من الساجدين □ أي المنزهي □ عن الظلم والجهل . ووقع في هذه السورة (وكان من الكافرين) ومعناه أنه كان كافراً ساعتئذ أي ساعة إبائه من السجود ولم يكن قبل كافر ففعل (كان) الذي وقع في هذا الكلام حكاية لكفره الواقع في ذلك الوقت . قال الزجاج : " (كان) جار على باب سائر الأفعال الماضية إلا أن فيه إخباراً عن الحالة فيما مضى إذا قلت : كان زيد عالماً فقد أنبأت عن أن حالته فيما مضى من الدهر

هذا وإذا قلت : سيكون عالما فقد أنبأت عن أن حالة ستقع فيما يستقبل فهما عبارتان عن الأفعال والأحوال " اه .

وقد بدت من إبليس نزعة كانت كامنة في جبلته وهي نزعة الكبر والعصيان ولم تكن تظهر منه قبل ذلك لأن الملاً الذي كان معهم كانوا على أكمل حسن الخلطة فلم يكن منهم مثير لما سكن في نفسه من طبع الكبر والعصيان . فلما طرأ على ذلك الملاً مخلوق جديد وأمر أهل الملاً الأعلى بتعظيمه كان ذلك مورياً زناد الكبر في نفس إبليس فنشأ عنه الكفر بالـ وعصيان أمره .

وهذا نامونس خلقي جعله □ مبدأ لهذا العالم قبل تعميره وهو أن تكون الحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضلية فلا يحكم على نفس بتزكية أو ضدها إلا بعد تجربتها وملاحظتها تصرفاتها عند حلول الحوادث بها . وقد مدح رجل عند عمر بن الخطاب بالخير فقال عمر : هل أريتموه الأبيض والأصفر ؟ يعني الدراهم والدنانير . وقال الشاعر :

لا تمدحن امراً حتى تجربه ... ولا تذمنه من قبل تجريب .

إن الرجال صناديق مقفلة ... وما مفاتيحها غير التجارب ووجه كونه من الكافرين أنه امتنع من طاعة □ امتناع طعن في حكمة □ وعمله وذلك كفر لا محالة وليس كامتناع أحد من أداء الفرائض إن لم يجد أنها حق خلافا للخوارج وكذلك المعتزلة .

(قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين [75]

قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين [76]) E A